

★ سورة الانفطار:

هذه السورة العظيمة جاءت في هذا الجزء لتبين مجالاً من مجالات الاعتقاد العظيمة، وهو ما يتصل باليوم الآخر.

★ علوم السورة:

(1) هل هي مكية أو مدنية؟

هي سورة مكية لأنها تتحدث في ضمن موضوعات وقضايا السور المكية.

العلماء قالوا: هي سورة مكية بالإجماع، ولم يقع فيها خلاف.

(2) اسمها:

سورة الانفطار، ولا يُعرف لها اسم غير هذا، فالبخاري في صحيحه قال: "سورة إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ" وهذه تسمية بأول آية من آيات السورة

❖ **بعضهم يقول:** سورة الانفطار.

❖ **هناك من قال:** سورة المنفطرة.

هذا الاسم واشتقاقاته هو الذي عُرفت به هذه السورة، ولم تُعرف باسم آخر.

(3) موضوعها

تتحدث عن مشاهد يوم القيامة، لكن ليس بالإطناب المذكور في سورة التكويد، وذلك لأن سورة التكويد جاء فيها من المشاهد ما هو أكثر، وهنا انتقلت من جملة من المشاهد ذُكرت في مقدمة السورة إلى عتاب الإنسان.

❖ في سورة التكويد قال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْفِلَتْ﴾ ثم ختم تلك المشاهد بآية واحدة: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ﴾.

❖ في سورة الانفطار، زاد في عتاب ابن آدم ومحاسبته وتبكيته على تفريطه في الاستعداد لذلك اليوم المهول، فقال الله - عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

❖ ثم بين أن الذي حمله على الاغترار بالدنيا، وعدم العمل للآخرة هو كونه كَذَّبَ بالدين، قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾

❖ ثم بين أنه كيف يمكن التكذيب بالدين والله - سبحانه وتعالى - قد جعل لنا كراماً كاتبين، يعلمون ما نفعل.

ولذلك بعدها جاء الجزء: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

خلاصة موضوع السورة:

يلاحظ في جو هذه السورة العظيمة أن المراد بها ذكر مشاهد يوم القيامة، وتبكي الإنسان على عدم الاستعداد لذلك اليوم، وكيف أن التهديد كان أكثر حيزاً من الترغيب والوعد.

(4) فضيلتها:

أولاً: قال النبي ﷺ: ﴿من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين؛ فليقرأ: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"، "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ"، و"إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ"﴾، فذكر ثلاث سور تصور لك يوم القيامة تصويراً بالغاً، وتبين لك مدى الهول الذي سيلقاه الناس، وستلقاه الخلائق في هذا اليوم.

ثانياً: أن معاذ بن جبل كان يطيل على الناس في صلاة العشاء، فحصل ذات يوم أن رجلاً من القوم لما كان معاذ يقرأ بهم سورة البقرة في قومه، انفتل وصلى وحده، ثم ذهب إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن معاذاً يأتي ويصلي معك، ثم يأتي إلينا ويصلي بنا فيطول، فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً،

وقال لمعاذ يخاطبه: ﴿أَفَتَأْتَانِ أَنْتَ يَا معاذ؟﴾ يعني أنفتن الناس في دينهم وتبغض لهم شعائر الإسلام؟ ، ثم قال له: ﴿اقْرَأْ بِهِمْ بِ"وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا"، "وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ"﴾، وفي رواية: ﴿"إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ"﴾ والحديث في سنن النسائي، وأصله في الصحيحين.

(5) الرابط بين أول السورة وآخرها:

قال سيد قطب - رحمه الله - في الرابط بين أول السورة وآخرها: "أولها: هوّل وحراك واضطراب، وآخرها: صمت ومهابة وسكون. وبينهما: لوم وعتاب".

(6) ارتباط هذه السورة بما قبلها:

في سورة التكوين حديث عن مشاهد يوم القيامة، وفي هذه السورة حديث عن مشاهد يوم القيامة، لكن في سورة التكوين كان الحديث عن مشاهد يوم القيامة مسهباً طويلاً والمشاهد كثيرة، في هذه السورة أقل، والانتقال منها إلى الغاية وهي تخويف الإنسان، عتابه، تحريك قلبه، لومه على تقصيره في حق ربه - سبحانه وتعالى -، لماذا لا تستعد لهذا اليوم؟ لماذا لا تأخذ أهبتك من العمل الصالح؟ لماذا لا تكون من الأبرار؟ إياك أن تكون من الفجار.

* تفسير آيات السورة:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾:

انفطرت: انشقت.

يقول العلماء: الانفطار هو أول الانشقاق، ينفطر الشيء، ثم ما يزال يزداد حتى يتضح الانشقاق.

ولذلك جاء في هذه السورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وجاء في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، وجاء في سورة التكوين: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ الذي يظهر - والله أعلم - أن ترتيب هذه الآيات كالتالي: انفطار، فانشقاق، فكشط.

ويؤيد هذا المشهد لأن السماء في نظرنا هي أكبر المخلوقات، فنحن لا نر من مخلوقات الله شيئاً أعظم من هذه السماء، وليس هذا حديث عن مخلوقات الله كلها.

﴿وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ﴾:

انتقل من عالم علوي إلى عالم علوي آخر ولكنه أدنى منه، وهو الكواكب، والمقصود بها نجوم السماء.

انتشرت: تساقطت.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾:

فجرت: بمعنى انفجر بعضها على بعض

❖ بعض السلف قال: املاّت.

❖ بعضهم قال: انفجر بعضها على بعض.

❖ بعضهم قال: انفجرت بمعنى ييست، وهذا بعيد في اللغة، لكنه من حيث المأل صحيح، لأنها ستمتلئ فينفجر بعضها على بعض، ثم تسجّر بنار

عظيمة من تحتها فتبيس ولا يبقى لها وجود.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾:

القبور التي هي مأوى الناس إذا ماتوا.

بُعْثِرَتْ: أثيرت وبُحِثت، وأخرج من فيها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾:

عَلِمَتْ: هي جواب "إذ"، يعني إذا السماء، وإذا الكواكب، وإذا البحار، وإذا القبور، في تلك اللحظة كل نفس تعلم إذا معها من العمل، ماذا قَدَّمَتْ وماذا أخرت.

نَفْسٌ: يعني كل النفوس، سواء كانت نفس صالحة، أو فاسدة، مؤمنة، أو كافرة.

مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ: فالمقصود هنا ما قدمته في أول عمرها وما أخرته في آخر عمرها، يعني كل ذلك في حياتها.

وكذلك ما قدمت في حياتها، وما أخرت بعد مماتها مما يكون من عملها، لأن عمل الإنسان قسمان:

❖ قسم يكون في حياة الإنسان.

❖ قسم يكون بعد موته، مثل الصدقة الجارية، والعلم الذي يُنتفع به. فهذا مما أخره الإنسان بعد موته.

وقد نقول أن المقصود منها: علم الإنسان بعمله كله، أوله وآخره، ما كان في حياته وما كان بعد موته.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾:

الْإِنْسَانُ: يراد به الإنسان الكافر لقوله ﴿مَا غَرَّكَ﴾ جعلك تغتر، فتقصر في حق ربك، ولا تقوم بما أوجب عليك من الإيمان والطاعة؛ هذا لا يليق إلا بالإنسان الكافر.

بربك الكريم: قوله ﴿بربك الكريم﴾ يعني لمزيد العتاب والذم لهذا الإنسان الذي اغتر بحياته وما أوتي في الدنيا، وترك طاعة ربه والإيمان به وبآياته ورسله، وليست لإعطائه الحجة على الله - سبحانه وتعالى - كما يقول بعض المتأولين.

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ: وهو الذي خلقتك، ربك، سواك، أعطاك، أنعم عليك، حَفَّكَ بربوبيته، أكرمك، هذا هو ربك الذي له النعمة الكاملة عليك.

ولذلك ما قال "ما غرك بالله" ما جاء بلفظ الألوهية، وإنما جاء بلفظ الربوبية ليبين كيف كان الرب رحيمًا، عطوفًا، كريمًا مع هذا الإنسان، لئلا يبقى له حجة على الله.

الْكَرِيم: وصفه بالكرم، لأنه قد أعطى ابن آدم عطاءً واسعاً وكثيراً ومجزياً، ولا يمكن للإنسان أن يكفر أو ينكر هذه النعمة، ولكن الإنسان بطبعه الكفور الظلوم يحدد هذه النعم، ويستعمل ما آتاه الله من نعمه في معصيته.

بربك الكريم: جاءت هاتين الكلمتين لإقامة الحجة على الإنسان وإلجأه، كيف ربك أكرمك؟ هل قَصَّرَ عليك؟ هل لم يُرسل لك الرسل، ولم يعطك الوسائل التي تتعرف بها على الحق من الباطل؟ هل هناك شيء تحتجُّ به على الله؟

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ﴾:

خلقتك: بمعنى أنشأك وأوجدك من العدم.

سَوَّاكَ: جعلك مستوياً، يعني كل جزء من اجزائك يؤدي عملاً معيناً وباستواء.

عَدَّلَكَ أَوْ فَعَدَّلَكَ:، قراءتان معتبرتتان، لكن ﴿عَدَّلَكَ﴾ أكثر مبالغة من ﴿عَدَّلَكَ﴾، جعلك معتدلاً في كل شيء، تجد للإنسان عينين إحداهما في اليمين، والثانية في اليسار ولم يجعله مشوَّشاً بمعنى أن يداً في الجنب، ويداً في الظهر، أو عيناً في الأمام، وعيناً في الجنب. فقد جعلك معتدلاً الخلق قائماً مستوياً على خلاف ما هو حال هذه البهائم التي سخرها الله لك، فإن الله لم يجعلها كذلك، وهذا كله من إقامة الحجة على ابن آدم.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾:

أي جعلك في صورة هو شاءها، هذه الصورة هي أجمل الصور وأحسنها، وليس لك من أمر صورتك شيء، يعني لست أنت الذي تصنع هذه الصورة،

فلو وُكِّل ابن آدم أن يصنع صورة لصنعها على وجه واحد، وصرنا لا نفرق بين محمد ولا سعيد، لصاروا كلهم شيئاً واحداً. فالله -عز وجل- من رحمته، ومن حكمته أن جعل التصوير إليه، ولم يجعله لأحد، ولذلك يخلقنا في أي صورة هو يشاؤها -سبحانه وتعالى- مرة تشبه خالكَ، ومرة تشبه عمَّكَ، ومرة تشبه أباك، ومرة تشبه أمك، وهكذا.

﴿ثم لما ذَكَرَ النعم، وعاتب الإنسان على معصيته، وعدم قيامه بطاعة ربه، واستعداداه للقاء الله -عز وجل- قال:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾:

كلا: هنا لردع وزجر هذا الإنسان الذي اغتر وترك الاستعداد للقاء الله، والاستعداد لذلك اليوم المهل العظيم.

بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ: الدين هو الجزاء والحساب، أي تكذبون بالجزاء والحساب، فما أشغلكم ولا غرَّكم، ولا جعلكم تنسون لقاء الله إلا تكذيبكم بيوم الدين، فلو أنكم صدقتم به وعرفتم أنكم ستلاقون الله لفعلتم حقاً ما يجب عليكم فعله من الإيمان والطاعة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾:

هنا يعود المقام إلى تذكير العبد بانه تحت مراقبة الله، وأن الله ما خلقه عبثاً، ولا جعله هملاً، ولم يتركه سدى؛ بل خلقه في حالة تدل على أنه متابع ومراقب ليستعد للقاء آخر يُجَازَى على كل شيء، ويُحاسب على كل صغيرة وكبيرة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾: وأكد هذا الأمر لأنه يتحدث مع من ينكرونه، وهم كفار مكة.

والمؤكدات في هذه الآية ثلاثة:

المؤكد الأول: "إِنَّ"

المؤكد الثاني: "لحافظين": اللام الدالة على التوكيد.

المؤكد الثالث: الجملة الاسمية وهي أيضاً مما يؤكِّد به الكلام.

لحافظين: الحافظون هم الملائكة يحفظون على الإنسان كل عمل من أعماله.

وليس المقصود هنا بالحفظ هو الحفظ من وقوع المقدور لأن الآيات دالة هنا على معنى في الحفظ غير المعنى المذكور في قول الله -عز وجل-: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ فالحفظ في سورة الطارق، وفي سورة الرعد هو أن تحفظ الملائكة الإنسان من وقوع المكروه، أو وقع ما لم يُقدَّر عليه.

أمَّا هنا فالمقصود بها حفظ الكتابة، فكل ما تقوم به من عمل، ما تلفظ به من قول فهو مدوَّن ومسجَّل ومثبت، تشبه الملائكة ولا يتركون منه شيئاً.

كما قال الله -عز وجل-: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾:

كرامًا: يعني ذو منزلة عالية رفيعة عند الله، والكرام من كل شيء هو أعلاه في جنسه.

ولذلك يُقال: أحجار كريمة، ومخلوق كريم، وكتاب كريم، يعني هو أعلى ما يكون في جنس ذلك الشيء.

كاتِبِينَ: يكتبون أعمال الإنسان، لا يدعون منها شيئاً.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾:

فكل ما يفعله الإنسان ويقوم به من خير أو شر تعلمه هذه الملائكة وتدوِّنه، لا تترك منه شيئاً.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾:

وجاء به مؤكِّدًا بثلاثة مؤكِّدات: ("إِنَّ"، "لَفِي"، الجملة اسمية)

لأنه يُخاطب قومًا منكرين، والعادة في كلام العرب أنه إذا خوطب المنكر يؤكِّد الكلام له بأكثر من مؤكِّد بحسب إنكاره، وإذا كان خالي الذهن فإن الكلام لا يؤكِّد له.

الأبرار: جمع برّ، والبر هو المتوسع في فعل الطاعات، يُقال لمادة "برّ" في اللغة العربية تدل على السعة.

نَعِيمٍ: المقصود به بالدرجة الأولى: نعيم الآخرة، لأن الحديث عن الآخرة، ولكن ذلك لا يمنع أن يأخذ الإنسان من النعيم بقدره في دنياه وفي قبره، لأن النعيم هنا جاء مطلقًا غير مقيد، ما قال: "لَفِي نَعِيمٍ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي الْآخِرَةِ"، فدلَّ ذلك على أن البر يُدرك من النعيم في الدنيا، وفي قبره، وفي الآخرة، كل واحدة من هذه الدور الثلاثة بحسبها، وهذا ما أثبتته ابن القيم -رحمه الله- في تعليقه على هذه الآية، لأنها جاءت مطلقة.

﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾:

الفجار: أي خرجوا عن الطاعة وهم الذين فجروا من جهتين:

❖ من جهة فجور القلب بالتكذيب.

❖ ومن جهة فجور الجوارح بالعاصي.

يَصْلَوْنَهَا: أي يصلون تلك الحجيم يوم الدين، أي يوم الجزاء والحساب.

والدين يأتي بمعنى الجزاء والحساب، كما تقول العرب: كما تدين تدان، وكما في الأثر: "الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني".

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾:

بَغَائِبِينَ: يعني عن الحجيم، أي مخلدون فيها لا يخرجون منها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾:

عظم الله يوم الدين بهذا الأسلوب الذي سيتكرر معنا كثيرًا في جزء عم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، إنه يوم عظيم، يوم مهول، استعدوا له، وانتبهوا له، واستيقظوا لعظمته، وكونوا على حذر منه، وخذوا الأهبة التامة لهوله، فإنه فوق ما تتخيلون، وأعظم مما تصورون.

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾:

هذا من باب التاكيد على هول ذلك اليوم.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾:

اجاب الله عز وجل بهذا الجواب الفخيم، الرهيب، المهول، الساكن، الذي يملأ النفس عظمة وهيبة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾، ليس هناك نفس مهما كانت تملك لنفس مهما كانت شيئًا، إلا أن يأذن الله بشيء من ذلك ويرضاه، فلا أحد في ذلك اليوم يتصرف أو يقدم خيرًا، أو يدفع ضرًا، أو ينصر أحدًا؛ إلا أن يأذن الله به.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾:

الأمر كله لله، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، حتى إن رسول الله ﷺ إذا طُلبت منه الشفاعة يذهب ويسجد عند العرش، ويحمد الله بمحامد لم يفتح عليه بمثلها من قبل، ويكثر من الحمد لله -عز وجل- حتى يُقال له: ﴿ارفع رأسك، وسل تعطى...﴾